

خطاب تعزية إلى أهل فقيد الميتروبوليت أوغسطينوس كانتيو تيس نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

(من وحي سبت الأموات)

"يهود العهد القديم بكوا يعقوب وموسى أربعين يوماً. أما اليوم، في جنازة المؤمنين، ترفع الكنيسة الترانيم والصلوات والمزامير. ونمجد الله ونحمده، لأنه توجّ الراحل، لأنه أراح الآلام، لأنه طرد الخوف، وأخذ المؤمن الراقِد إلى قربه. هذا هو السبب أن الصلوات والمزامير تكشف أن في حَدَث الموت هناك سعادة وفرح بسبب قيامة المخلص يسوع المسيح المجيدة. فالمزامير والأناشيد هي رموز الفرح. وبحسب الكلمة الرسولية: "أَمْسُرُورٌ أَحَدٌ؟ فَلْيُرْتَلْ" (يعقوب ٥: ١٣). لهذا ننشد المزامير على الأموات، المزامير التي تدفعنا إلى الشجاعة وعدم اليأس من موت أخيّنَا". (القديس يوحنا الذهبي الفم)

أيها الأحباء

اليوم، انتقل أحد أفراد عائلتكم من هذا العالم العابر وغير الكامل. حبيبكم كان معكم لسنوات عديدة. قضيتكم معاً أياماً لا تُنسى، أيام فرح وأيام حزن. كنتم ترغبون في البقاء معاً لفترة أطول، ولكن حتى لو كنتم معاً لمدة ألف عام، فلن يكون ذلك طويلاً بما يكفي. يمر الوقت بسرعة ويأتي الموت، لا يمكن تجنبه. مَنْ يعيش ولن يواجه الموت؟ لقد أتى الموت وأخذ حبيبكم من حضنكم. هناك قبر جديد في مقبرة عائلتكم وأنتم الآن تبكون إلى جانب القبر. حبيبكم لم يعد موجوداً. ماذا قلتم؟ لم يعد موجوداً؟ لا! هذا ليس صحيحاً! إن حبيبكم الذي جنّزتموه ودُفِنَ بصلابة الكنيسة موجود بالفعل! تسألون كيف؟ تحدث فيلسوف يوناني قديم، في الواقع سقراط أعظم فيلسوف على الإطلاق، مع أتباعه قبل وفاته بوقت قصير. أخبرهم ألا يحزنوا على وفاته الوشيكة وألا يهتموا بشكل مفرط بمكان وكيفية دفنه، لأن ما سيتم دفنه ليس سقراط، بل جسده فقط. قال لهم: "سقراط روحٌ لن تموت أبداً. في وقت الموت، ستغادر الروح الخالدة، تماماً كما يطير الطائر المسجون بعيداً عندما يُفتح باب القفص. إن سقراط الذين تبكون عليه، في ذلك الوقت، سيختبر فرحاً عظيماً. سيكون قد ترك عالم الظلم هذا ودَّهَبَ إلى عالم آخر حيث يسود البرّ. العدل الذي حُرِمَ منه هنا على الأرض سيجده في السموات..."

كانت هذه الكلمات التي قالها الفيلسوف قبل لحظات من وفاته. سقراط، مع أنه عاش قبل المسيح بأربعمئة عام، كان يؤمن بخلود الروح. واجه الموت بشجاعة وقدم العزاء لأتباعه.

ونحن الذين نعيش بعد المسيح، إذا كنا لا نؤمن بأن الروح خالدة وأن هناك حياة أخرى بعد القبر، فإننا ندين أنفسنا تمامًا بسبب عدم إيماننا. فإن الذي صار إنسانًا لم يكن فيلسوفًا قابلاً للخطأ، بل الله نفسه، ربنا يسوع المسيح الإله-الإنسان، ينبوع الحق، جوهر الحقيقة نفسها، هو الذي أكد لنا هذه الأمور. لقد بشر بأوضح الطرق بأن لنا نفسًا خالدة. "لأنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ لَوْ رِيحَ الْعَالَمِ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الْإِنْسَانُ فِدَاءً عَنِ نَفْسِهِ؟" (مرقس ٨: ٣٦-٣٧). والمسيح لم يركز بخلود الروح وحسب، بل أثبت هذه الحقيقة الأساسية بالمعجزات، بإقامة الأموات. أقام ابنة يائرس، ابن أرملة نايين ولعازر. قيامة لعازر موصوفة بالتفصيل في الإصحاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا. بمجرد أن تعودوا إلى المنزل من جنازة فقيدكم الغالي، افتحوا إنجيلكم وادرسوا هذا الإصحاح. اقرأوه، لا مرة واحدة فقط بل عدة مرات. ما من كلمات تعزية أكثر من تلك الموجودة في الإنجيل. ما حدث للعازر سيحدث للجميع. الرب الذي أقام لعازر سيقم جميع الأموات. أمز الرب "لعازر، هلمَّ خارجاً!". هذا أمر إلهي جعل روحه تعود إلى الجسد الميت فيخرج لعازر من قبره. هذا النداء نفسه سيسمعه جميع الذين ماتوا. في كل القبر سوف يُسمع صوت "أيها الأموات، اخرجوا من قبوركم!" ستعود أرواحهم وسيظهر الجميع مرة أخرى، لا بالأجساد التي لهم اليوم، أي الأجساد القابلة للمرض والموت والتعفن، ولكن بأجساد غير فاسدة. لسنا قادرين على تخيل ما سنكون عليه عندما نُقام من بين الأموات.

لكن الدليل الأعظم على أننا سنُبعث وأننا نحن المؤمنون بإرادة الله والسالكين بحسبها لن نُبعث من الأموات وحسب، بل سنعيش حياة جمال وسعادة لا يمكن تصورها وهي أعظم دليل على قيامة الأموات، والحياة الآتية هي قيامة ربنا يسوع المسيح. نعم! فليقل الماديون غير المؤمنين ما يريدون. صحيح، إنه حدث تاريخي، أعظم حدث في تاريخ العالم، أن المسيح انتصر على الموت. قام من بين الأموات! وكما أعلن أعظم الرسل "الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الْأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ" (كورنثوس الأولى ٢٠: ١٥). ومثلما قام المسيح يقوم كل الأموات. هذا هو إيماننا، لا بل أساس إيماننا.

عندما يؤمن الناس، لا يكون الموت كارثة تغرقهم في حزن طويل أو كآبة أو يأس. فالمؤمنون سيكون بالتأكيد عند وفاة أحد أفراد أسرته، ولكن ليس كئواح الوثنيين وعبداء الأصنام والكفار. في الماضي، كان يُحتفل بموت المسيحي الذي عاش وشهد للمسيح مثل عيد ميلاد. من المُعترف به أننا نولد مرتين، مرة عندما نخرج من ظلام بطن أمنا لنواجه نور الشمس الحلو، ومرة أخرى عندما نترك ظلام الحياة الحاضرة، التي هي مثل رحم الأم، لنواجه نور الأبدية المبارك. إن من يخرج من بطن أمه لا يتأذى، لأن ما يكسبه هو حياة جديدة، أفضل بكثير من تلك التي داخل الرحم.

وعلى المنوال نفسه، الشخص الذي يغادر هذا العالم بالموت لا يتأذى، إذ يكسب حياة جديدة، تتفوق بلا حدود على الحياة الحالية. بحسب الإيمان المسيحي، "المَوْتُ هُوَ رِبْحٌ" (فيلبي ١: ٢١) وليس خسارة

أو كارثة. هذا كان إيمان مسيحيي القرون الأولى، عندما كانوا يحتفلون برفاد المؤمن وكأنه عيد ميلاده. كانوا ينشدون ترانيم القيامة ويقولون للمنتقل: "مغبوط السبيل الذي تسير فيه اليوم، فقد تهيأ لك مكان الارتياح". لكن أين الإيمان اليوم؟ للأسف، الكفر يسود. اليوم، الناس، معظمهم، لا يؤمنون بالرب المصلوب والقائم من أجلنا، الذي صعد إلى السماء، وسوف يأتي أيضاً ليدين الأحياء والأموات. إنهم لا يؤمنون بخلود الروح. إنهم يعيشون بلا إيمان ويموتون بلا إيمان. ولهذا يرعبهم الموت. إنهم ينوحون على أقاربهم الذين ماتوا ويندبونهم وكأنهم لم يعودوا موجودين. ثم، عندما يتحدث إليهم أحد عن خلود الروح وقيامه الأموات والحياة الآتية، يضحكون ويسخرون من جدّيته. إنهم يقولون أنهم يريدون البراهين لكي يؤمنوا، يريدون معجزات.

يريدون عجائب وبراهين! حسناً، معجزات القيامة ودلائلها ليست في الكتاب المقدس وحسب، بل هي أيضاً في كتاب آخر كتبه إلهنا الحكيم القدير. هذا الكتاب مكتوب بحيث يمكن قراءته، ويقدم دروساً، حتى لغير المتعلمين. هذا الكتاب هو الطبيعة. في هذا الكتاب نجد صوراً جميلة عن القيامة.

تأملوا الشمس. من يرى غروب الشمس لأول مرة، وينظرها تختفي في الأفق، ويرى ظلام الليل ينتشر في جميع أنحاء الأرض، يندب ويصرخ: "ماتت الشمس!" إنه لا يُصدّق التأكيدات بأن الشمس سوف تشرق من جديد. ولكن على الرغم من أن الشمس تبدو وكأنها تنطفئ كل مساء، إلا أن الأمر ليس كذلك. إنها ترتفع في جزء آخر من العالم وتستمر في نشر نورها الساحر. شروق الشمس وغروبها هما أيقونة واحدة للحياة والموت. كما يقول الشاعر: "ما نرى أنه غروب الشمس له حلاوة الفجر الآتي؛ وبدلاً من الليل بدون شروق، يشرق النهار الذي لن يكون فيه غروب شمس".

تأملوا صورة أخرى من كتاب الطبيعة. في فصل الشتاء تكون الأشجار عارية والجبال مغطاة بالثلوج وتذهب الطيور بعيداً. تبدو الطبيعة ميتة. لكن الربيع يأتي، تذوب الثلوج، تزهر الأشجار، تنبت البذور المزروعة في الوحل، تنمو، تتحوّل الحقول إلى الأخضر، وتصبح الحدائق عطرة وتغني البلابل. إنه الربيع! فرح الله! القيامة! الله، الذي يوفّر الطاقة التي تمكّن الطبيعة الميتة من الظهور في حياة جديدة في فصل الربيع، هو الكلي الحكمة والقوة، يستخدم قوته غير المحدودة لإحياء جميع الأجسام الميتة إلى حياة جديدة، كما أكد لنا. قال النبي إشعياء (١٩:٢٦): تَحْيَا أَمْوَاتُكَ، تَقُومُ الْجُنُثُ. اسْتَيْقِظُوا، تَرْتَبُوا يَا سُكَّانَ الثَّرَابِ". نعم، سيقوم الأموات، "لأنّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ مُمَكِّنٍ لَدَى اللَّهِ" (لوقا ١:٣٧). فلماذا إذاً لا تصدقون؟

أحتاجون مثلاً آخر؟ أنت أبٌ أو أمٌّ؟ عندما ترى طفلك الحبيب ينام، في السرير أو بين ذراعيك، أنت لا تبدأ في البكاء ولا تقول إن طفلك قد مات. أنت تعلم أنه في غضون ساعات قليلة سيستيقظ الطفل، ومن ثم سوف يكون أكثر نشاطاً وسعادة مما كان عليه قبل النوم. وبالمثل، فإن الشخص الذي تحزن

عليه ليس ميئاً، بل هو راقد فقط. نعم، راقد. لأنه بحسب تعليم الكتاب المقدس، الموت هو نوم، نوم مطوّل سوف ينتهي في آخر الأمر، ثم سوف تستيقظ أجساد الموتى من جديد عندما يجتمعون بأرواحهم الخالدة. يشير الرسول بولس إلى الموتى بالراقدين، ويقول بأنه لا ينبغي بالمسيحيين أن يحزنوا عند موت أحبائهم مثل الكفار والوثنيين. استمعوا إلى كلماته: "لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين، لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم. لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيحضرهم الله أيضاً معه" (١ تسالونيكي ٤: ١٣-١٤). يقول القديس كوزما الأيتولي، مؤسباً الذين حزنوا على موت أحبائهم "ألا نرى القيامة بوضوح؟ عندما ننام، ألسنا مثل الأموات؟ ما هو النوم الا موت صغير؛ وما هو الموت الا نوم مديد؟ وكما أن حبة الحنطة التي تسقط على الأرض لن تنمو من دون مطر يفسدها ويجعلها لباً، كذلك نحن الذين نموت ونُدفن ما كنا لننال ماء الحياة الأبدية والقيامة لو لم يكن المسيح قد دُفن أولاً في قبره. ألا ترون بوضوح كيف يخرج الله النباتات من التربة كل عام؟"

إذاً وفقاً لما كُتب أعلاه، وفقاً لكلمات الفلسفة الحقيقية، ووفقاً لأمثلة وصور الطبيعة وقبل كل شيء، بحسب شهادة الكتاب المقدس وكلمة الله التي لا تقبل المنازعة والتي بها ينبغي أن يكون لنا ثقة مطلقة، محبتكم لم تختف، لم تَضع، لم تصرِ صِفراً. لا تقولوا ذلك! إنه كفر. ولا تحزنوا من دون عزاء. هذا خطيئة. نسألکم، هل تحزنون وتبكون ولا تتعزّون عندما يغادر قريبكم إلى أستراليا أو أمريكا؟ بالطبع لا. أنتم تعلمون أن قريبكم سيحظى بحياة أكثر سعادة وتأملون بأن تلتقوا مرة أخرى. وبالمثل، فإن محبتكم، التي سلبها الموت اليوم من جانبكم، تعيش، وإن كانت في عالم آخر. لا تشكّوا أبداً في وجود هذا العالم الآخر! كما هو مؤكد وجود أستراليا وأمريكا، يمكنكم أن تكونوا على يقين، ويمكنكم أن تكونوا أكثر يقيناً بوجود حياة أخرى، حياة أبدية.

لو كان من الممكن أن يرتفع صوت من ذلك العالم الآخر حيث يوجد أحبائكم الآن، فماذا كنتم تسمعون؟ "أعزائي، لا تبكوا عليّ. أنا أعيش. أنا هنا في عالم آخر يفوق خيالكم. إنه مكان رهيب فقط لأولئك الذين لم يؤمنوا خلال حياتهم على الأرض، والذين لم يعيشوا وفقاً لإرادة الله. بالنسبة لأولئك الذين آمنوا بالمسيح وعاشوا وفقاً لإنجيله، إنه عالم أكثر جمالاً بكثير مما تتخيلونه. جماله يفوق الوصف. لذا من فضلكم اسمعوني. لا تسمعوا للكافرين. اغلقوا اذنيكم عن كلامهم. هناك جنّة وهناك حياة أبدية. آمنوا بيسوع المسيح، ادرسوا إنجيله، طبّقوا وصاياه المقدسة، وتوبوا وابكوا فقط على خطاياكم، لأنه لا توبة في الجحيم".

الموت لا يقطع الصلة التي بين الذين يعيشون على الأرض والذين انتقلوا إلى العالم الآخر. حافظوا على هذه الروابط. أحيوا ذكرى الذين ذهبوا إلى عالم الأبدية. حافظوا على خدَم الذكريات المقدسة

التي فيها تتذكرونهم. ولا تقيموها مثل عبدة الأصنام بل كمسيحيين كما أرشدناكم. قبل كل شيء، تذكروا أن أعظم تقدمة يمكنك تقديمها لأرواح الذين رقدوا هو صدقاتكم، عمل محبتكم للفقراء والمتألمين.

أيها الأصدقاء الأعزاء، كأسقفكم أشارككم حزنكم على وفاة من تحبون. كنت أفضل أن أزوركم في منزلكم، لأعبر شخصيًا عن مؤاساتي، وأحاول أن أعزيكم بتعليم الإنجيل الخالد، لكن بما أن هذا لا يمكن تدبره، فأنا أرسل لكم هذه الرسالة بيد كاهن رعييتكم. أطلب منكم ألا تتجاهلوها ولا تتلفوها. من فضلكم اقرؤها باهتمام واحتفظوا بها كتذكار مرتبط بذكرى حبيبكم الذي رحل هذا اليوم إلى الجنة. "لَمْ شمل مبارك"، تصرخ روح الحبيب من الخلف، حيث انتقلت من الحياة الحالية الباطلة. "ليكن لنا جميعًا لَمْ شمل مبارك، يا إخوتي وأخواتي، إلى الأبد."

بشفاعات والدة الإله الفائقة القداسة وجميع القديسين الذين أرضوا الله على مَرّ القرون، أتمنى أن تكون نهاية حياتنا مسيحية بلا حزن ولا خزي، وجواباً حسناً لنودع ذواتنا لدى منبر ربنا يسوع المسيح المرهوب عندما يأتي ليدين الأحياء والأموات.

+المطران أوغسطينوس

ميتروبوليت فلورينا، اليونان

Source: A Letter Of Consolation To The Bereaved. By Bishop Augoustinos Kantiotes. Introduction by Fr. Asterios Gerostergios. Institute for Byzantine & Modern Greek Studies. 21 pp. Second printing, 1997.

